دفاعا عن المصحف الشريف: نور على نور

د. فادي محمد الدحدوح
مؤلف وباحث

إن النفس الإنسانية السوية تأبى العدوان وممارسة الكراهية والإهانة والتجريح للنفس أو للغير أو لمقدساتها، إذ طبعت تلك النفس على تجنب الفاحش من الفعل والقول، ومن ثم فإن الإساءة إلى أديان الآخرين تخل بذلك الاحترام وتمثل تعدياً صارخاً على القيم الإنسانية النبيلة، وتؤدي إلى حدوث صراعات ونتائج سلبية غير محمودة النتائج بين أصحاب الديانات المختلفة، وجميع الحضارات الراشدة تنبذ الكراهية العنصرية والدينية لما يمكن أن تسببه من مآس، وتجرم التشريعات الجنائية في الدول الإسلامية أفعال الإساءة إلى الأديان والرموز الدينية، والحض على الكراهية الدينية، سواء كان ذلك بالقول أو بالفعل. وكما لاحظنا جميعا فقد تكررت أفعال التعدي على المقدسات الإسلامية في العديد من الدول الأجنبية، وبات الساسة الغربيون والمنظمات الدولية يتناولون تلك الأفعال بالحديث عن حرية الرأي والتعبير، وبالتغاضي أو التنصل من مسؤولية دولهم عنها تارة أخرى.

لقد شاهدنا خطاب الكراهية والعدوان المتنامي ضد الإسلام وما يمثله، ومن أبرز ملامح هذا الخطاب قولا وفعلا ظاهرة الرسوم المسيئة في الدنمارك، وقتل آخرين في فرنسا وغيرها دون وجه حق، وخطف الأطفال ومحاولة تنكيس فطرتهم، وتأتي اليوم ظاهرة حرق المصحف الشريف في السويد وغيرها من الدعوات التي تستهدف الإسلام كديانة وعناصره ورموزه وأشخاصه، مما أدى إلى مضاعفة محنة الأقليات المسلمة التي تعيش في الغرب، ومحاولة عزلهم والتأثير على دورهم في المجتمعات، وقد سبق ذلك قيام أحد المستوطنين بتمزيق المصحف الشريف والعبث به والاعتداء على حرمة المسجد على أرض فلسطين المباركة والتي تتعرض بشكل متكرر لأشد فصول ظاهرة الكراهية والعدوان على المقدسات الإسلامية وسرقتها في صورة أخرى من صور الكراهية الدينية والإساءة ضد الإسلام والمسلمين وتؤجج العنصرية والكراهية والعدوان، مما يشكل تهديداً للأمن والسلم الدوليين.

تشكل تلك الأفعال الصادرة من الأفراد الحاقدين والمحمية بحجج ومبررات واهية تحت بند حرية الرأي والتعبير من الدول الغربية تحريضًا واضحا على الكراهية الدينية وخروجها عن المبادئ التي تضمنتها القرارات الصادرة عن منظمة الأمم المتحدة ولجانها الفردية بشأن مكافحة ازدراء الأديان، بل إن بعض الاتفاقيات الدولية تخول الدول المتضررة الالتجاء إلى محكمة العدل الدولية لمطالبة الدول التي تقع مثل هذه الإساءة على أراضيها بالتدخل لحظرها، وهنا تأتي مهمة واجبة على الدول العربية والإسلامية القيام بها من خلال وضع إستراتيجية محددة وواضحة المعالم للتصدي لجميع صور الإساءة للدين الإسلامي، ومحاولة الاستفادة من الآليات المتاحة بموجب ميثاق الأمم المتحدة وسائر الوثائق المشار إليها، والتي يمكن بمقتضاها مساءلة الدول المعنية عن الإخلال بالتزاماتها الناشئة عن تلك الوثائق في حالة امتناعها أو تقاعسها عن نبذ وحظر أي إساءة موجهة إلى الإسلام ورموزه وعناصره وأفراده وما يمثله عبر إجراءات قوية لمواجهة الهجمات الموجهة إلى الإسلام والمسلمين، والقيام بذلك واجب ديني وتكريس لحقوق الإنسان التي كثيرا ما دعت إليها الدول الغربية، وكونها من القيم الإنسانية البشرية.

أنزل الله تبارك وتعالى على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم المصحف الشريف: **تِبْيَانًالِكُلِّ شَيْءٍوَهُدًىوَرَحْمَةًوَبُشْرَىلِلْمُسْلِمِينَ**، خطاب لا كأي خطاب، فهو خطاب عالمي معجز متحد مطلق، وإن كان قد تنزل بلغة عربية لفظا إلا أنه مطلق في معانيه، ومحيط شامل يستوعب الإنسان والكون، ويستجيب لما كان من حالات تاريخية سابقة، ويستمر باتجاه المستقبل عبر مختلف العصور، كما وصف كتاب الله عز وجل بصفات لم توصف بها الكتب السابقة، وأحيط بضمانات لحفظ نصه، بحيث يبقى محفوظا عبر الأجيال إلى يوم القيامة: **إِنَّانَحْنُنَزَّلْنَاالذِّكْرَوَإِنَّالَهُلَحَافِظُونَ**. وتتنوع وتتعدد خصائص القرآن الكريم بتعدد وتنوع زوايا النظر، وتنوع المتدبرين، وهي غير قابلة للحصر؛ لأن القرآن مطلق، والإنسان نسبي، وليس من شأن النسبي أن يحيط بالمطلق. وقد اقتضت حكمة الله عز وجل أن ترفع النبوة بوفاة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وأن يدع فيها كتابه الكريم معصوماً غير ذي عوج قادراً على هداية البشرية وقيادتها من خلال خصائصه التي يتميز بها، فهو الكتاب المهيمن والمصدق على ما سبقه من كتب وصحف: **وَأَنْزَلْنَاإِلَيْكَالْكِتَابَبِالْحَقِّمُصَدِّقًالِمَابَيْنَيَدَيْهِمِنَالْكِتَابِوَمُهَيْمِنًاعَلَيْهِ**.

ولأجل بلوغ الأمة الإسلامية مرتبة الشهود الحضاري لابد لها من ابتغاء القرآن المجيد والعروج إلى عليائه من جديد، والتأسي بمنهج رسول الله صلى الله عليه وسلم في التعامل معه من ذات المنطلقات التي كان يتعامل معه بها باعتباره كلام الله تبارك وتعالى المطلق، والمصدق، والمهيمن، والحاكم على ما عداه، والتعامل مع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم باعتبارها ممثلة له وموضحة وشارحة، وبالتالي فإن مقومات بناء هذه الأمة وقواعدها وخصائصها تمثل قبسات من تلك الخاصية المطلقة للنبوة والرسالة التي يمثلها رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتي بدورها نفحات من ذلك الإعجاز المطلق الذي يتمثل في القرآن الكريم، ومن واجب المسلمين والدول الإسلامية اليوم والجاليات الإسلامية الدفاع عن المصحف الشريف ومواجهة خطاب الكراهية قولا وفعلا، وما يمثل الحضارة الإسلامية من مكونات ورموز وعناصر، والقيام بالدور المناط على أتم وجه، وإبراز النور في معالم الرسالة المحمدية للبشرية جمعاء وأنها رسالة وحضارة تتوق لها الأنفس وتنجو بها الأمم فتسلك طريق النور والتقدم، وتحقق التوزان وتمارس منهج الرشد والوسطية، ومن يسارع إلى طريق العدوان والتعدي على منهج الهداية والرشد فالله تعالى قال لرسوله صلى الله عليه وسلم: **وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**، ودائماً ما تأتي المحن بالمنح.